أشرق الأمل يا فلسطين!

للأستاذ علي حيدر الركابي

لقد قضيت عمري تائهاً في صحراء الحياة، أرى العواصف الهوجاء تهب حولي حتى تكاد تطمرني فأسير وأنا واقف في أرضي، وأرنو إلى الأفق البعيد أنشد فيه خيال واحة أستظل بظلالها وأرتوي بمياهها، فإذا بالأمل قد خاب، وإذا بالسراب قد تلاشى وانكشف عن قفار تمتد إلى اللانهاية لا أدري إلى أين المصير

وقد قضيت عمري غريقاً في بحر الحياة اللجب، تتقاذفني أمواجه الملتجة حتى كادت، تغرقني فكنت لا أتقدم خطوة نحو شاطئ النجاة إلا أبعدتني عنه خطوات؛ وكانت الأمواج ترفعني تارة فيخيل إلي أني قد بلغت مثلي الأسمى؛ ثم تسخر بي وتضحك ملء شدقيها وتفتح فاها المخيف وتجذبني إلى أعماق جوفها وكأنها تريد ابتلاعي، فأشعر أن قد دنا أجلي وأصيح وأستغيث ولكن لا ملبي لندائي ولا مغيث

وقد قضيت عمري هائماً في ليل الحياة المظلم وقد خيم سواده على كل مخلوق فحجب عني الحقيقة، وضللت الطريق ورحت أخترق حجب الظلام ببصري علِّه يقع على قبس من نور ولو ضئيلاً أهتدي به. ولكن الجهد كاد يفقد عيني بصرها فسرت وأنا كالأعمى أتخبط في دياجير الظلام بلا هدف ولا أمل

وقد صعدت قمة الهرم الكبير، وأجلت الطرف حولي، ثم انحدرت إلى الوادي السعيد فلم أعثر على منقذي، بل عثرت على نفوس فقيرة حقيرة قد أضعفتها الجيوب المنتفخة، وضربت حولها أسواراً من الذهب الوهاج، وأقامت لها داخل هذه الأسوار عرشاً من الماس فاستوت عليها قانعة شاكرة، وعثرت إلى جانب هذه النفوس الفقيرة الحقيرة على نفوس غنية كبيرة قد عمتها يد البؤس والشقاء وحصرتها في أسوار من الاملاق، فلما عجزت عن تحطيمها أو اجتيازها خضعت للأمر الواقع واستسلمت للأوهام تستمد منها حرية تستعيض بها عن حرية الحقيقة. فيئست من النفوس الفقيرة وبكيت على النفوس الغنية وغادرت الوادي السعيد وهرمه العظيم بقلب مفجوع وأمل خائب

وقد تبعت طريق بني اسرائيل لما خرجوا من مصر فقطعت صحراء التيه ثم وقفت على جبل الطور وتوجهت بناظري إلى الشرق فنفذ بي من أعماق النور الأعظم إلى أفق أسود قاتم تتدلى في سمائه الغيوم الباكية، ولاح لي شعاع من ذلك الأفق الممتد وراء الأردن فرقصت طرباً وخلت أنه النور الذي سيهديني، ولكني ما لبثت أن أدركت أنه برق بدا لحظة ثم اختفى وتلته رعود قاصفة تنذر بدنو العاصفة، فحولت بصري عن الشرق وأخذت أجيله في الجهات الأخرى عساي أحظى بضالتي المنشودة. إلا أني ما رأيت سوى القتلى في كل مكان قد صرع كل واحد منهم سهام ثلاثة خرجت من أقواس لثلاثة صيادين: أولهم صوبها بنفسه معتمداً على مهارته مغتراً بقوته والثاني ضعيف لم يقو على شد القوس فاستأجر بدراهمه الكثيرة من يقوم مقامه من الرماة الماهرين؛ أما الثالث فقد كان يسعى ويجد حتى لا يخطئ قلب أخيه المقصود، يفعل ذلك طمعاً في اكتساب رضاء الأول والحصول على دراهم الثاني، فعريت صدري للسهام المتناثرة كي يصميني أحدها فيضع حداً لحياة قد فقدت معناها وضلت هدفها إلا أن السهام أخطأتني ولم تفرج كربتي فغادرت الطور شقياً هائماً على وجهي

وقد انتقلت إلى جنة الله على الأرض وأطلقت روحي في الهواء فصاحبت الطير وحلقت معه في الفضاء الواسع بين الجبل الأشم والسهل الخصيب، تغرد معه على الأغصان، وتصغي معه إلى قيثارة الغدير. ولما عادت هذه الروح إلى جسدي أنبأتني بما فهمته من الطير والغصن والغدير؛ فقالت: إن الطير تبكي ولا تغرد، وان الغصن قد قوسته الأحزان، وأن الغدير يرسل زفرة الكليم، وذلك لأن هذه المخلوقات قد أرسلها خالقها هدية إلى قوم لم يقدروا قيمتها ولم يفهموا معناها، إذ أنهم استعاضوا عن المهدى وهديته بأصنام من صنعهم شيدوا لها الهياكل والمعابد وراحوا يحرقون أمامها البخور ويقدمون لها الضحايا؛ فلو عاد محمد صلى الله عليه وسلم نفسه لتحطيمها للاقي منهم ما لاقاه من قريش. فقلت: يا للمصيبة، وغادرت الديار غير آسف وتوجهت نحو الصحراء الشرقية يدفعني الألم مما خلفت ورائي والأمل بما استقبلت أمامي.

وقد جلست في قارب صغير وهمست في أذن النهر العظيم

قائلا : « إنك تحمل فى طياتك تجارب آلاف السنين ، وأخبار مئات الأقوام، وقد مرّ فرعاك بأقصى البلاد وأدناها فبالله حدثنى » فلم أحظ منه بجواب لأنه كان نائماً فرفعت صوتى وكررت الطلب ففتح إحدى عينيه ثم الأخرى ثم تثاءب وأعقب ذلك ضحكة اهتز لها صدره حتى كاد قاربى ينقلب ثم قال « إنى لمرتاح ، وإنى لمسرور كما ترى . فقد مرت عشرات السنين وأنا أشق طريقى إلى البحر بكل حرية فلا يعترضنى أحد ولا ينقص من مادتى شيئاً » فثرت على هذا الكسل وصحت: « ولكن هذه الحرية المزعومة إن أرضتك فقد أشقت التربة الصالحة وقلبتها صحراء قاحلة حتى مدّ الجوع يده إلى ألف ألف بيت » . فضحك مرة أخرى وقال : « رويدك يا صاح ! وما شأنى أنا؟ ولمَ تلومنى ؟ نعم أنا مرتاح إلى هذه النتيجة إلا أنى لم أكن سبباً فى وقوعها ... » ثم أغمض عينيه وعاد إلى سباته العميق وتركنى وحيداً وسط الخضم أنادى فلا أجد من يلبى وأصيح فلا أسمع سوى صدى صيحتى الضائعة .

ولما خاب كل أمل لى فى النجاة وأيقنت أنى سأبقى تائهاً فى الصحراء بلا دليل ، وغارقاً فى اللجة بلا منقذ ، وضالاً فى الظلام بلا نور هادى ، ولما تسرب اليأس إلى قلبى فاذا بى أرى العاصفة قد سكنت ، وإذا بيد بيضاء تمتد لانتشالى ، وإذا بالشمس الضاحكة تفىء ما حولى، وإذا بحياتى قد ملئ فراغها بالأمل لأن نفسى قد اهتدت أخيراً إلى الطريق الذى يوصلها إلى الغاية . فمن هو هذا المحسن العظيم الذى فعل ما عجز عنه غيره ؟ من هو هذا الانسان الذى استطاع أن ينفخ فى قلبى القانط روح الأمل ببنى الانسان ؟ وما الذى قام به هذا الشخص حتى أعاد لنفسى شيئاً من ثقتها بالبشر ؟

إنه طالب عراقى فقير أصغر منى سناً وأقل علماً، ولكنه مع ذلك قد لقننى — وهو التلميذ وأنا الأستاذ — درساً بليغاً فى الخلق السامى والتضحية النادرة .

تعاقب خطباء المدرسة على المنبر فهزوه هزا وبُحت حناجرهم وكلهم ينادى « فلسطين ! فلسطين ! » واحمرت الأكف من التصفيق وهى تقول بلغتها العجيبة « لبيك ! لبيك ! » ثم انقضى دور الدعاية والكلام وحل محله دور العمل والاغاثة الفعالة فاشتد الحماس وجاء الطلاب الريفيون الفقراء بالمال إعانة لمنكوبى فلسطين وبذلوا بذلاً وقف دونه من هو أوفر منهم مالاً . وفى وسط هذا الحشد الثائر جلس الطالب حكمة عبد العزيز يفكر ؛ فان قلبه مملوء إيماناً بالله ونبيه أولا ، ثم بلزوم إعانة فلسطين وهو لا يملك فلساً فما العمل ؟ ولكنه تردَّدَ لحظة لا أكثر اندفع على أثرها إلى المنبر وأخذ ينزع ملابسه حتى عرى جسده إلا مما يستر عورته وهو يعلن بصوت خرج من أعماق قلبه أنه لا يملك ما يتبرع به غير هذه الملابس (وأنا أعلم — والله يشهد — أنه معوز) فلتبع على قِدَمِها وليخصص ثمنها لاغاثة سكان الأراضى المقدسة . وما كاد يتم كلامه حتى دوى المكان بالتصفيق واهتزت الجدران بالهتاف العالى المتواصل . وعرضت ملابسه للبيع فتنافس الجميع فى شرائها كل يريد أن ينفرد بشرف الحصول عليها حتى بلغت قيمتها حداً عظيما . وأراد الشارى أن يعيد الملابس إلى صاحبها بعد أن تم المقصد من تقديمها ولكن هذا أبى ذلك بشدة واعتبر هذا العمل إهانة له . وبعد ملابس حكمة أمطر الطلاب المنبر بوابل من أشيائهم الخاصة طالبين بيعها فهذا قدم قلمه السيال وذاك محفظته وثالث ساعته ورابع نظارته وهلم جرا .

هذا ما قام به طالب عراقى فقير من الأرياف ، وهو عمل قد يعتبره بعض الناس عادياً، ولكن المتعمق لا يسعه إلا أن يعجب به ويمجده ويبنى عليه الآمال العظام لأننا نعيش الآن فى عصر شمل فيه الانحلال كل شىء حتى بات العمل الصالح نادراً يجب التمسك به وإعلانه إلى الملأ عند العثور عليه .

فاهنأ بعيشك يا حكمة فان أمة فيها شاب مثلك لن يكتب لها أن تموت، وإن شعباً فيه روح مثل روحك هو شعب حى سيسود رغم كيد المدونين : الأجنبى المستعمر والوطنى الخائن . سر فى طريقك على بركات الله ولا تجزع، فان كنت قليل المال أو معدومه فانك غنى النفس ، وقد استطعت بهذا الغنى أن تقدم لفلسطين مساعدة مادية ، وأن تضرب للشباب مثلاً سامياً فى التضحية ، كما أعدت إلى اليائسين أمثالى ثقتهم بشباب هذا الجيل — وكل ذلك وقف دون تحقيقه من هم أغنى منك مالا لأنهم أصغر منك قلباً وأحقر نفساً . نم مرتاح الفؤاد يا حكمة فان قصتك ستبقى خالدة على الدهر يستنير بها الشباب ويتخذونها شعاراً حياً يرمز إلى كل ما فى كلمة (جهاد) من معنى .

وأنت يافلسطين ، ماذا أقول وكل حرف من اسمك المطهر يفجر فى قلبى نبعاً جديداً من الأسى ؟ أأرثى لحظك المنكود أم أرثى أرضك التى لم تراعَ حرمة لقدسيتها ؟ أم أنوح على مئات الضحايا تقدمينها كل فجر على مذبح الشرف والحرية ؟ أم هل أشق الفضاء بصيحات أندب فيها قراك الخربة ومنازلك المتهدمة وحقك المسلوب ؟ كلا والله ليس البكاء والعويل بمنقذك .

أي أندلسنا الجديدة: إن أبناء الأندلس القديمة لم يبخلوا بالندب والنواح والاستغاثة والصياح ، ولكنهم مع ذلك خسروا بلادهم وأخرجوا عن دينهم لأنهم اكتفوا بأنات الألم واستسلموا لليأس وسلموا قيادهم من يجهل معنى الاخلاص . أما أنت فقد خرجت الآن من دور البكاء والاستسلام والتسليم ، وما عادت تجوز عليك خدع المتزعمين من أبنائك طلاب السلطة والمال ، وقد دخلت أخيراً فى دور الجهاد المبارك الذى أعلنه المخلصون من أبنائك البررة — أبناء الشعب الساذج ذوى الايمان القوى والعقيدة الراسخة والأرض المسلوبة .

فجاهدى وناضلي يافلسطين واعلمى أنك قطعة ثمينة من الوطن الأكبر الذى لا يزال فيه بقية من الخلق الذى كان يتحلى به فتيان محمد (ص) الأولين . وهذه البقية الباقية إن كانت ضئيلة اليوم فلن تبقى ضئيلة إلى الأبد فانها والله لكالجمرة التى خلفتها النيران فى الرماد وظن الناس أنها منطفئة ، حتى إذا ماهبت العاصفة أطارت الرماد وعرّت الجمرة ونفخت فيها الحياة فاحمرت ثم اندلعت منها ألسنة اللهيب واتصلت بما حولها وتوسعت دائرة الاشتعال حتى أصبح إخمادها فى حكم المستحيل . وها هى ذى عواصف الاضطهاد والارهاق تكتنفنا من كل جانب وهى كفيلة باذكاء نار الحمية فينا وإعادة ذلك العهد الذى دُكت فيه عروش الأكاسرة والقياصرة على يد فئة قليلة يقودها بدوى أمى خرج من قلب الصحراء المقفرة .

وهذا الأمل الجديد الذى أبشرك به يافلسطين لقد ولده فى قلبى عمل حكمة أحد فتيان محمد (ص) . فأرسلى ناظريك إلى ما وراء الصحراء وترقبى — مثلى — خروج القائد المنتظر فى بلاد (حكمة) ومن جيل حكمة .

« بغداد — دار المعلمين الريفية » على حيدر الركابى

في مصر الإسلامية

تنازع البقاء بين العلوية والعثمانية

للدكتور حسن إبراهيم حسن
الأستاذ بكلية الآداب

كان من العوامل الخارجية التى نازعت سلطان العلويين فى مصر وجود حزب الأمويين فى الشام ، وعلى رأسه معاوية ابن أبى سفيان الذى أخذ يعمل على سلخ مصر من على بن أبى طالب . وسار معاوية إلى هذه البلاد ونزل بسلمنت من كورة عين شمس (فى شوال ٣٦ هـ) ، فخرج إليه ابن أبي حذيفة وأنصاره ليمنعوه ، فبعث إليه معاوية يخبره أنه لا يريد قتالاً وإنما يريد أن يدفع إليه رءوس قتلة عثمان ، فأبى ذلك عليه ، فبعث معاوية يطلب إليه تبادل الرهائن والودائع ، كى يضمنوا جميعاً أن يكفّ الفريقان عن الحرب ، فقبل ذلك ابن أبى حذيفة .

ولعل ابن أبى حذيفة لم يفطن إلى ما كان يرمى إليه معاوية ، وأن هذا الطلب لم يكن فى حقيقة الأمر إلاّ مكيدة حاك شرا كها دهاؤه ، فاستخلف على مصر رجلا من أنصاره ، هو الحكم بن الصلت ، وخرج فى الرهن هو وغيره من قتلة عثمان ، ثم سجنهم معاوية في « لدّ » من أرض فلسطين ، وسار إلى دمشق ، فهربوا من سجنهم ، إلاّ واحداً أبى الفرار ، فتعقّبهم عامل معاوية وقتلهم ، وكان من بين القتلى محمد بن أبى حذيفة . (ذو الحجة ٣٦ هـ) وذلك بعد قتل عثمان بسنة كاملة [1]

ولسنا ندرى كيف يعلل خروج ابن أبى حذيفة ، وهو رأس شيعة علىّ فى مصر وغيره من أنصار العلويين وزجه بنفسه فى مخاطر هذا الرهن . بيد أن المصدر التاريخى الذى نعوّل عليه فى هذه الناحية وهو كتاب « الولاة » للكندى (٣٥٠ هـ) أقدم مؤرخى مصر بعد ابن عبد الحكم (وعنه أخذ غيره من المؤرخين المتأخرين ، وأهمهم ابن دقماق والمقريزى وأبو المحاسن والسيوطى) لم يذكر لنا السبب الذى حدا بابن أبى حذيفة وأنصاره إلى الذهاب فى الرهن ، بل ولم تذكر المراجع كلمة واحدة عن رجال معاوية الذين دخلوا فى هذا الرهن ، الذى لم

(١) الولاة للكندى ص ١٩ — ٢٠ والخطط للمقريزى ج ٢ ص ٣٣٦